ذاكرة امرأة عراقية

تفتح صفحة النصف الآخر، نافذة لذاكرة المرأة العراقية المناضلة كي تكتب تاريخ وقفتها المشهودة والنادرة في تاريخ النضال السياسي للشعب العراقي بكل تياراته السياسية والفكرية التي قارعت حكم الطاغية وقدمت المرأة العراقية على مذبح حريتها ثمناً باهظاً شهيدة وسجينة ومنفية، نساء من طراز خاص تحدين إرهاب الدولة وصرخن عالياً بـ(يعيش العراق) وهن متوجهات إلى ساحة الاعدام أو حبل المشنقة، وتحملن كل عسف وألم زنزانات النظام المقبور. امرأة عراقية أخفت زوجها وابنها واخاها وحبيبها بل جارها، عن أعين فئران الزيتوني البؤساء هذه المرأة مطلوب منها ان تكتب هذا التاريخ الحقيقي للمرأة العراقية لا تاريخ اتحاد النساء وحفلات نادي الصيد! النصف الآخر تفتح هذه النافذة.

فقدت ثلاثة من اخوتها في الحرب مع ايران ومثلهم في انتفاضة ١٩٩١ والسابع تحت التعذيب

شذى الشبيبي

استقبلتني السيدة (أم فرح) اميرة عبد الامير بوجهها البشوش الذي يحمل عينين ما زالتا وبرغم كل ما عانته تنطقان بالاصالة والحب العراقي الكبير، عجز القهر والموت عن اغتياله.. بيت قديم في احد احياء كربلاء الاصيلة، بيت يكاد يبدو فارغا في كل ركن من اركانه فيه امرأتان فقط.. هما اميرة وزوجة اخيها (ام سعد) في يوم من الايام كان يعج هذا البيت برجاله الثمانية، اصواتهم ما زالت تطرق سمعها، كانت (اميرة) صبية في اول عتبة من الشباب حين استشهد ثلاثة من اخوتها في حرب ايران، وبرغم اعتقاد العائلة بأن طاحونة الموت قد ابتعدت عن طريقهم، جاءت حرب الكويت وفي عام ١٩٩١ كانت الانتفاضة الاذارية تقول (أم فرح) والدموع تزدحم في عينيها: لم نعرف ان الموت عقد صفقته الكبيرة معنا حيث جرح الابناء الثلاثة لم يندمل بعد، وحينما دخل الجيش الى المدينة وحسب تعبيرها (جيش السحل) لم نجد سببا لمغادرة الدار، فليس لدينا ما نخافه.

وحينما اشتد الوضع وظل (جيش السحل) ينادي بالاخلاء خرج رجالنا وحدهم وحسب اعتقادي اتجهوا صوب (الحلة) وفي ذلك الوقت لا يعلم الناس في كربلاء اين يتجهون.. فالنار والرصاص والموت والجثث تملأ شوارع المدينة الحزينة.

حمى الذكريات تلهب رأس (أم فرح) حتى انك لتشعر انها لا تبكي اخوتها فقط، بل هي استحضرت تلك الايام الدامية تتذكر مدينتها وشوارعها وازقتها وما جرى في ذلك العام.

عام الموت، تبقى ام فرح بين جملة واخرى تلعن حسين كامل الذي زرع الموت والدمار في بيتهم، وحكم عليهم بالشقاء المؤبد.

بعدما هدأ الوضع نسبيا وعاد اهالي المنطقة الى بيوتهم، لم يعد اخوتي (الحديث لاميرة) ولم يعرف بأخبارهم احد، قاسم وحسين وعبد الزهرة، اما عبد الرضا فأخذوه فيما بعد ونتيجة التعذيب الوحشي في الامن العامة سلم الامانة الى بارئها وسار على طريق اخوته تاركا زوجته وابنه الذي كان صغيرا حينذاك.

اخذوا الرجال ولم يبق غير النساء والوالدة المنكوبة واطفال كتب عليهم الضياع، فالشهيد محمد عبد الامير له تسعة اطفال ليس لهم أي معيل غيره.. كل هذا ولم يتركوهم بحالهم، استمرت المداهمات لبيتهم، وظل (رجال الرعب) بين فترة واخرى يستقدمون النساء او يداهمون البيت ليسألوهن عن ابنائهن مع التهديد والوعيد.

تقول (أميرة) ان اسلوبهم القذر وقساوتهم منعانا عن متابعة اخبار اخوتي ولاننا اصبحنا في وضع نريد السلام فقط ونطلب (الستر) من الله، فرجالنا عندهم ونحن متأكدون من ذلك والوالدة المنكوبة لم تيأس من عودة ابنائها، بقينا نبث فيها الامل انهم سيعودون، خاصة في حالة عدم وجود قبر او شهادة وفاة او حتى جثة كان يحيي احساسا بداخلها بأن ابناءها ما زالوا على قيد الحياة وبقينا نشجعها على هذا الاحساس خوفا عليها وعلينا لانه لم يبق لدينا غيرها.

لم يعد لهذه العائلة المدمرة أي مورد بعد غياب الرجال، وليس هناك من يتحمل هذا العبء الثقيل الا بعض الاقارب واهالي المنطقة الطيبين ممن ما زالت عقولهم ونفوسهم تحمل الخير والرحمة.. ولكن كيف والى متى.؟؟

تفيض دموع (اميرة ام فرح) وهي ترى ان الموت ارحم لهم من حال العوز والقهر الذي صار عنوان حياتهم.. وهي لها مأساتها الشخصية، فقد تأسر زوجها بعد ولادة طفلتها الوحيدة بستة اشهر، وظلت حبيسة الهموم طوال هذه الاعوام بانتظار عودة الزوج الاسير في ايران، ولكن يبدو ان الزمن لم ينو اصلاح امره معها، ومع كل المصائب والمصاعب استطاعت بارادتها والعزيمة القوية ان تربي ابنتها الوحيدة، وعانت ما عانته من هموم نفسية ومادية وهي تمني نفسها، لعل وعسى زوجها يعود من اسره في يوم ما. وهي ما زالت على وفائها وعراقتها غير آبهة لعمرها وشبابها الذي أخذ ينفرط كالعقد، عاما تلو الاخر لم يبق شيء في الدار لم يبع، وهي تتطلع بعيون (فرح) تكبر ويكبر فيها الامل، لا بد ان يعود الزوج والاب الاسير تفخر به ويفخر بها وبابنته.

لا تعلم (أم فرح) ان كانت جثث اخوتها وجدت في المقابر الجماعية ام لا لانها ببساطة لا تملك قوت يومها فكيف تقوى على مصاريف أخرى؟ وتقول: طلبوا مني (٣٠٠٠) دينار كي تكون لي هوية ولكني لا أملك هذا المبلغ (الثروة) فنحن نعيش بقدرة القادر، وقد طرقت كل ابواب الخيرين من المؤسسات التي تعنى بشؤون امثالي لم اجد جوابا شافيا كان املي ان يخصص مبلغ شهري مهما يكن ضئيلا يحمي ماء الوجوه من العوز لان مرارة السؤال والحاجة الى العباد اثقل من الصخر بالنسبة للمتعفف، وهي مؤمنة بأن القدر لا بد منه وهي تتأسى بالحوراء زينت (ع) وتقول لست احسن منها فهي ابنة رسول الله (ص) وجرى ما جرى لها صبرت واحتسبت فمن اكن انا بجانبها؟؟

ولانها لا تجيد القراءة اخرجت لي كل ما تملك من اوراق وهويات كان بينها شهادات وفاة لاخوتها الشهداء صدرت بتواريخ مختلفة لاعدام تم بتواريخ ثابتة من الشهر الثالث عام ١٩٩١ ويبدو ذلك بشهادة شهود.

ودعتنا ام فرح بالدعوات والامتنان لانها تشعر بسعادة لمجرد منحها الفرصة لتفرغ ما بذاكرتها وتعتبر ذلك فضلا ومواساة انتظرتها منذ زمن.

هلوسة

شذى الشبيبي

تجولت في الاحلام
بحثا عنك
من بين ثقوب
الزمن الارعن
تطلعت الى الله
خطوة بين جهنم
والفردوس
حفنة من الدعوات
تملأ قبضتي
تنتظر فرصة
للعبور نحو السماء
صهيل يكتسح
مداراتي!
يأخذ وجهي مني
ويرسم صوتي
قسرا!

مشاهدات بعيون مدينة اسمها الناصرية

محمد شريف ابو ميسم

في عام ١٨٦٩ تم تأسيس مدينة الناصرية، اذ استدعي في ذلك العام الشيخ ناصر السعدون شيخ عشائر المنتفق الى بغداد بأمر من الوالي العثماني مدحت باشا، فأعرب هذا الاخير للشيخ ناصر عن رغبته في تحويل ديرة المنتفق الى لواء عثماني تمشيا مع الاصلاحات العثمانية التي شهدت اول انطلاقة لها في عهد السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٠-١٨٠٧) فجاء اسم المدينة الجديد من اسم الشيخ ناصر، ثم انتدبت الحكومة العثمانية، المهندس البلجيكي (جولس تلي) الذي خطط المدينة تخطيطا عصريا ثم شرع في بناء مقر ضخم للحكومة، لتصبح الناصرية مركزا لمتصرفية لواء المنتفق... واتحاد عشائر المنتفق هذا يقع في منطقة تسمى قديما (البطائح) تغمرها المياه وينبت فيها البردي والقصب، وكانت اولى العشائر التي توارثت السكن في هذه المنطقة الواسعة، تعرف باسم (العبادة) وهذه المنطقة انعكست في امتداد ديار عشائرها المتوزعة هنا وهناك، فتحدها من الشمال محافظة الديوانية ومن الشرق محافظتا واسط وميسان ومن الغرب البادية الجنوبية الغربية ومن الجنوب محافظة البصرة.

الصلة بالارض

يرى البعض من المعنيين بالدراسات الاكاديمية، ان هذه المدينة لا تعد من (المدن المتوالدة) على الرغم من صلتها المكانية بمدينة اور السومرية وبمجموعة المستوطنات المجاورة لها، وسبب ذلك حسب ما يورد هؤلاء هو الانقطاع الزماني بين الحضارة السومرية ونشأة مدينة الناصرية، (والمدن المتوالدة هي المدن التي ورثت مواضعها في نطاق موقعي) ويرى هؤلاء ان الناصرية ذرعت في مكانها بقرار سياسي ابان فترة السيطرة العثمانية، على الجانب الايسر من النهر.. وينبت فيها القصب والبردي، كانت على مدار التاريخ موطنا انتظمت فيه الحياة بسبب وفرة مقوماتها، فسكنها الانسان ولم يغادرها، الا لظروف قاهرة، فوفرة المياه والاسماك والطيور والبيئة المثالية لتربية وتكاثر الدواب، مع غابات النخيل جعلت من هذه المنطقة مركزا نشأت عليه بالتتابع تجمعات سكانية على الرغم من عدم انتظامها في هذه المرحلة او تلك في مراكز حضرية عنها تعب السنين، فليس سوى مظاهر لبناء منازل جديدة هنا او هناك الا ان شوارعها ما زالت متعبة، واحياءها ترتسم عليها ملامح الشيخوخة برغم فتوة بعضها. وانت قادم اليها من بغداد عبر محافظة واسط، تكون قد تخطيت قضاء القلعة (المنهكة) وقضاء الرفاعي (المنسي) وناحية النصر الغناء بخضرتها العنيدة وقضاء الشطرة الخليلية وناحية الغراف (المنفية) حينها سيستقبلك المرآب الرئيس لمركز المدينة، امام هذا المرآب ثمة مساحة واسعة من الارض احيطت بسور حديدي من اكثر من عام على امل اقامة متنزه عليها، الا ان هذا المتنزه الترابي ما زال بانتظار الايادي الكريمة التي ستزرع فيه وردة، هذه الايادي مدعوة لزراعة وردة اخرى في الاراضي الواسعة والواقعة امام المستشفى الرئيس، وعندما تتوغل في داخل المدينة لا تجد من جديد سوى كثرة الشعارات على الجدران، وصرح قاعة بهو البلدية الذي ينتظر عصا سحرية لتعيد فيه الحياة او تحيله الى ركام ليطوي اهل المدينة، من فوق جسر النصر يستطيع المرء ان يطل على الكورنيش، هذه الوسادة الناعمة التي تغفو عليها بقايا قصص لاهل (الولاية) هذه الوسادة تبكي على حملة تشجير للشاطئ..

من على الجسر ايضا تستطيع ان تطل على تصاميم جميلة لحدائق كانت حدائق في يوم ما واستحالت تراباً وارصفة ممحوة، ساحات عديدة اخرى هجرها الزرع منذ سنين، اما اذا توغلت في الاحياء السكنية التي ما زالت بانتظار قدوم الشوارع فانت مدعو الى تشجير الارصفة المؤجلة امام بيوت الناس لان قدوم هذه الارصفة ابعد من الخيال فالمناطق ما زالت بدون شبكات للمجاري او حتى شبكات للمياه في بعض منها.. ثمة اشياء بسيطة ونشيطة يستطيع اهل المدينة القيام بها من اجل ان تصحو مدينتهم من نومها العميق. فنوبة النعاس التي تصيب المرء عندما يعتلي كرسي المسؤولية تمنح الرعية حق الصحوة..

والا ما الذي ورثته الرعية من معبدها السومري، ومن عناد بوجه الترك والانكليز وبوجه اعتى طاغية عرفته اوروك؟

وبين هذا الرأي او ذاك، ثمة واقع موروث انعكس بشكل وبآخر على سكان هذه المنطقة وهذا الواقع تتعدد ملامحه المشتركة مع ملامح الماضي، فتبدأ من اشكال الادوات المستخدمة في المناخ الاجتماعي، كادوات الزراعة والصيد ولا تنتهي بمسحة الحزن المشتركة بين الغناء الريفي والغناء السومري، وربما يكون الواقع الجغرافي لهذه المنطقة الذي عزلها عن بقية المناطق مبررا لتشابه الواقع الموروث في النشاط المجتمعي.

ما بين العثمانيين والانكليز

يورد بعض المؤرخين ان موقع مركز المدينة، تم اختياره من قبل العثمانيين على ارض منخفضة من بحيرة (أبو جداحة) التي تستمد مياهها من نهر الفرات لتكون تحت رحمة تلك البحيرة، فمتى ما بدر من اهلها حركة مضادة للحكومة، امرت تلك الحكومة بتسليط ماء تلك البحيرة على المدينة لتغرق في غضون وقت قصير جدا، وهذا الرأي يفترض ان مركز تلك المدينة سيكون محط استقطاب للعيش ومدعاة لهجرة الديار والارض على خلاف الواقع التاريخي الذي يشير الى صغر مساحة المدينة المقامة على النهر وعدم توسعها حتى منتصف القرن الماضي، فبقيت العشائر التي تسكن ديار المحافظة شديدة المراس وعصية على سيطرة العثمانيين، وكثيرا ما اقلقت الباب العالي، فلم يحصل ان سلط عليها الماء، على العكس من ذلك تشير الوقائع الى اوامر كان يصدرها الوالي العثماني مدحت باشا، يأمر فيها بتحكيم السداد لوقاية المدينة من الغرق.. وبعد ان تم للانكليز احتلالها عام ١٩١٥ ارادوا ان يصانعوا اهلها لكسب ودهم كما يورد الدكتور كامل الجبوري في مقدمة مذكرات الضابط الانكليزي برترام توماس- حفاظا على ضوابط مواصلاتهم فاظهروا عناية فائقة في تنظيم القرى والقصبات وتحسين وسائل الري وحفظ الصحة وحسم النزاعات القبلية، حيث كانت حوادث الانتقام والفوضى في السنوات الاخيرة من الحكم العثماني متفشية في منطقة الاهوار وكانت العشائر تتفاخر وتتباهى بحمل السلاح، فكان الشيخ (بدر الرميض) شيخ عشيرة (البوصالح) اول من حمل السلاح ضد الانكليز من بين مشايخ المنطقة.. وبعد سقوط الكوت واحتلال مدينة بغداد ودخول الجيش البريطاني اليها، استمرت عشائر المنتفق في عدم طاعتها لاية سلطة حتى ثورة العشرين التي شاركت فيها عموم قبائل المنتفق.

انتفاضة آذا عام ١٩٩١

في اعقاب حرب الخليج الثانية، انتفضت هذه المدينة مع مدن عراقية اخرى على سلطان الدكتاتورية، وبعد قمع الانتفاضة بسط السلطان نفوذه من جديد على تلك المدن المنتفضة، فانزل عقوباته الجماعية التي طالت كل شيء الانسان، المياه، الحيوان.. فبعد ان اقام المقابر الجماعية شرع بتغيير مجرى نهر الفرات لتجفيف الاهوار بدواع سياسية فكان له ذلك فقضى على الثروة السمكية الهائلة وابيدت اسراب الطيور غير القادرة على الهجرة الطويلة التي كانت جزء من مصارد الثروة الحيوانية لهذه المنطقة، وهاجرت الاخرى القادرة على الطيران ولم تعد الاهوار محطة لاستراحتها ونفقت الالاف من الحيوانات الماشية.. وسخر مشروع المصب العام، والمصمم في الخمسينيات لنقل المياه الى البحر لتدمير الارض الزراعية، اذ غير وظيفته الى اغراض الري وسمي بالنهر الثالث او نهر القائد، فحرم المبازل الفرعية من التصريف وارتفعت نسبة الملوحة الى اعلى مستوياتها في تلك الارض، فتصحرت مناطق كثيرة، وتحولت الاراضي الخصبة الى ارض ملحية، تم اغلاق العديد من المشاريع مثل معمل البان الناصرية الذي تم اغلاقه ونقلت خطوطه الانتاجية الى خارج المدينة ثم تم غلق معمل البان السماوي بدعوى ان صاحبه مطلوب للدولة، وتسرح العديد من العمال فازدادت البطالة وحاول الكثير من العوائل النزوح الى مناطق الوسط في العراق فمنع نزوحها بقانون يتم على اثره إعتقال أي عائلة او شخص يعمل في بغداد او المدن الاخرى، فاستحالت الحياة في هذه المدينة الى جحيم وبؤس.

المدينة الان

الزائر الى هذه المدينة الان يشعر بالامان والهدوء الذي يخيم عليها، ويشعر بحجم الخراب الذي توارثته، فبعد نحو السنتين والنصف من زوال الصنم والمدينة على حالها، وكأنها غارقة في نوم عميق على شاطئ الفرات بعد رحلة عناء طويلة، وهي بحاجة لمن يوقظها من منامها وينفض

حدث وحديث

معركة صامتة

مفيد الصافي

كان شابا بسيطا، في الثلاثين من عمره، تقتحمه العين اقتحاما، ولكن ثمة بريق غريب في عينيه .سألته عن رأيه في محاكمة صدام فضحك ساخرا وهو يقول "ربما كان عليك ان تسأل شخصا آخر".ثم عاد ليكمل قائلا " ان بيني وبين الطاغية عداوة شخصية.. ربما لا يعرفني هو ولكني كنت اعرفه!!- كان يتحدث بنبرة صادقة وكأن الكلام كان يخرج من قلبه" لا استطيع ان اختزل الحزن والألم، بل الأهوال، التي قاسيتها بسبب رأس النظام السابق ويكفيك ان تعرف أنني كنت هاربا من خدمة الجيش - العبودية كما اسميها انا - مدة عشر سنوات هربت بعد حرب احتلال الكويت بثقب في أذني اليمنى بسبب صوت مدفع ٥٧ ملم الذي كنا نقاوم به الطائرات في حربه المجنونة، وعدت في عام ٢٠٠٠ لأكمل العسكرية بمحض أرادتي.في تلك الأيام كنت بلا عمل او شهادة او مستقبل. وفي احد الأيام وبعد اهانة تلقيتها من احد الضباط في سجون العبودية. قلت لنفسي سأجعل شعار حياتي "من أعماق الفشل سوف اطلع " قررت ان أواجه النظام بأية وسيلة أتمكن منها- ولكن على طريقتي انا - هربت من الجيش لأعمل في مهنٍ مختلفة ..... (بائع خضار،عاملاً في مقهى، حمالاً، وأخيرا أكملت دراستي التي فشلت فيها اول الأمر .وتخرجت في إحدى الكليات متفوقا. كان في داخلي هاجس يقول لي ان على ان أتمرد على النظام وان انتصر عليه - نعم كانت هنالك محاولتان في هذه الفترة للهرب خارج العراق ، مثلي مثل آلاف الشباب الذين كانوا يحلمون بحياة أفضل.ولكن لم يتسن لي ذلك، وكان القدر يقول لي اهزم الطاغية هنا.كنت الفارس الذي يحارب التنين الناري.صدقني كنت أتخيل الطاغية صدام ، كأنه تنين بسبعة رؤوس. نعم كان نظامه وحشيا ولكنه مليء بالثقوب التي يمكن ان تتسلل من خلالها لتتنفس بعض الهواء. كنت أرى التنين كل يوم في طريقي الى كليتي المسائية كان يقف وحشيا قرب حديقة الزوراء وهو يمد يده بحركته الشهيرة كأنه يسخر من الجميع ليقول :انا سيدكم الأعلى! نعم كان ذلك التمثال بحجمه الديناصوري يقتلني ويغتصبني كل يوم. قطعت وعدا على نفسي ان ابصق و.... في لحظة سقوطه نفذت ذلك تركت منزلي الذي يقع على أطراف بغداد وجئت مشيا على الأقدام لأحقق ذلك- صدقني لم اقل هذا لأي احد فهي أسرار شخصية كنت لا أبوح بها أبدا- لقد كانت المعركة صامتة بيني وبينه .توقف هنا قليلا ليلتقط أنفاسه.... ثم قال" هل تريد المزيد؟ لقد كنت طوال هذه السنين احلم بإنني تقمصت شخصية الرجل الخفي لأتسلل الى قصر الطاغية لأصفعه صفعة واحدة فقط واهرب بعدها.او أتخيل نفسي إنني أصبحت مثل بطل رواية (الحرب والسلام) الذي حاول ان يحارب نابليون الذي استعبد شعبه. وكنت الطفل الذي قال الحقيقة الى الإمبراطور العاري . وبعد كل هذا ماذا تريد ان أقول عن المحاكمة . وانا أراه الان في القفص الذي صاغه لنفسه بعد كل ما فعل . كم تمنيت ان احضر ألمحاكمة لأقول له بأنني هزمته أخيرا. ولكن لا يهم فانا أترفع عن المهزومين. أريد ان أنام الان لأصحو على عالم ليس فيه أي اثر للطاغية ونظامه .واقع جميل أنسى فيه آلامي وأحزاني القديمة . لقد تعلمت ان أسامح الأشخاص الذين عاشوا متأثرين بالوحش وسقطوا في براثنه خوفا وطمعا.وان أحب الآخرين لأن هذا ما سوف يكرهه صدام وهو في قبره تطارده شياطين الجحيم . احلم هذه الأيام ان لدي جناحين يمكن ان أسافر بهما الى أي مكان لأنسى كل شيء.

وبعد كل هذا ماذا تريد ان أقول عن المحاكمة ؟